الأثر التربوي للخطاب الحسيني ودوره في الزيارة الأربعينية (شباب الأربعين أنموذجًا)

حوراء خضير عبيس
مجلة رياض الزهراء ﷺ /العتبة العباسية المقدسة
hawraaalklabi6@gmail.com

ملخص البحث:

الخطاب الحسيني هو خطاب إسلامي أصيل متكامل الجوانب شرعيًا وإنسانيًا وأخلاقيًا وقيميًا واجتماعيًا وسياسيًا، إنه باختصار: منهج حياة

وممّا لا شك فيه أنّ النهضة الحسينيّة قد رفدت الأُمّة بدروس وعِبر، حري بها أن تتخذ منها منارًا تهتدي بهديه، ومنهجًا ترتسم خطاه إذا ما أرادت أن تنجو من العثرات، وما يعصف بها من انحرافات، فقد كان الباعث الأهمّ لهذه النهضة، هو تصحيح المسار الذي جنح بالأُمّة، وإصلاح ما لحق بها من مفاسد.

لقد تصدى الإمام الحسين عليه السلام لهذه المهمّة الصعبة، وما انطوت عليه من مخاطر، فكان للكلمة وقعها المدوي، أعقبه بالعمل ليكون العمل مصداق القول، في زمن خفت فيه صوت الحق؛ إذ آثر الناس العافية، فلاذ بالصمت مَن لاذ، وتهاوى من أخذه بريق الذهب.

الكلمات المفتاحية . الأثر التربوي الخطاب الحسيني الأربعين

The educational impact of the Husseini speech and its role in the Arbaeen visit "Young Forty Models"

Hawra Khudair Abbas

Journal of Riyadh al-Zahra (peace be upon her) / the al-Abbas's holy shrine

Abstract

Al-Husseini discourse is an authentic Islamic discourse that is integrated in its legal, human, moral, ethical, social and political aspects. In short, it is a way of life.

There is no doubt that the Hussaini renaissance has enriched the nation with lessons and lessons, from which it should take a beacon to guide its guidance, and a method that it should follow if it wanted to escape from the obstacles and the deviations that afflicted it. Misdemeanors of the nation, and fix the evils that befell it.Imam Al-Hussein, peace be upon him, faced this difficult task, and the dangers it entailed. The word had its resounding effect, followed by action, so that the action would be true to the word, at a time when the voice of truth was fainter. When people preferred wellness, he took refuge in silence from those who sought refuge, and he collapsed from taking the sparkle of gold.

keywords . The educational impact, Al-Husseini's speech, the forty

مجلة علمية محكمة نصف سنوية
www.arbnj.com
صفر - ١٤٤٥هـ ,ايلول - ٢٠٢٣م

المقدمة

بسم الله العلي القدير، بسم الله بديع السماوات والأرض ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على الأحمد المحمود، قطر دائرة الوجود، والحبل الممدود بين العبد والمعبود، الذي تشهد باسم الله الأوحد، وقبل جميع الخلق تَشَّهد، ليبعث في الأرواح السؤدد، ذاك أبو الزهراء محمد عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من التحيات أزكاها.

إنَّ الخطاب الحسيني خطاب عالمي بامتياز يلاطف الوجود الإنساني لأنه أخذ من النبع القرآني الصافي وما يؤديه من تفعيل حركية النص والخطاب في هداية المجتمع الإسلامي خاصة، والبشرية عامة.

ويعدّ من أهمّ مظاهر السلوك الإنساني، بل هو هوية الإنسان، فضلًا عن كونه المرآة التي تعكس مشاعره وانفعالاته واتجاهاته النفسية، يقابل ذلك متلقّي الخطاب الذي لا بدّ من أن تظهر آثار ذلك الخطاب عليه، وهو ما يعبّر عنه بالانفعالات العاطفية سواء إيجابية كانت أم سلبية، وبفعل الرسالة الإلهية التي تضمّنها خطاب الإمام الحسين عليه السلام استجاب كثير من الأنصار إلى نداء القلب، وقبل ذلك إلى نداء الرب؛ وكذلك الحال في خطابات المسيرة الحسينية الأُخر. ولا شك في أنّ التفاعل مع هذه الخطابات قد أخذ أبعادًا تربويةً متعددةً، منها ذلك التفاعل العاطفي الذي أدّى إلى بذل النفس في سبيل الله، والوقوف إلى صف الفريق الحق، فريق الإمام الحسين عليه السلام.

وقد حمل الإمام الحسين عليه السلام إرث العظيم من بلاغة القول وفصاحة اللسان وقوة التعبير من جده وأبيه.

وتنطلق أهمية البحث من كون الإرث الثقافي العظيم الذي ينطلق منه الإمام الحسين عليه السلام في خطابه بجملة من الآثار التربوية التي لم تقتصر على شريحة محددة لا من حيث العمر، ولا من حيث الجنس، ولا من حيث المستوى الثقافي فالجميع متاح له أن يتربى على مبادئها صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً، أما مشكلة البحث فتتمثل في كيفية ترسيخ أثر الخطاب الحسيني في نفوس هذه الفئة (الشباب).

ومن هذا المنطلق قسمت البحث على تمهيد ومبحثين. تناولتُ في التمهيد مفهوم الأثر في اللغة والاصطلاح، وتوقفت في المبحث الأول على الخطاب الحسيني وروافده وكان على محورين الأول: مفهوم الخطاب في اللغة والاصطلاح، والثاني روافد الخطاب الحسيني، وخصصت المبحث الثاني للخطاب التربوي الحسيني على شباب الأربعين وهو المحور الذي يدور حوله البحث ثم تأتي الخاتمة بأبرز النتائج.

التمهيد: مفهوم الأثر

أولا: الأثر في اللغة

تعددت المعاني التي حدد بها الأثر في اللغة منها، قال الخليل(ت:١٧٠ه): أَثَر السيف ضَرْبته، وتقول:(من يشتري سَيْفي وهذا أَثَرُه)، يضرب للمُجرَّب المُخْتَبَر... قال الخليل: والأَثَر الاستقفاء والاتّباع) (الرازي، ج١، ص ٤٢ _ ٤٣

قال ابن فارس (ت: ٣٩٥ه) (أثر: الهمزة والثاء والراء له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي... قال الخليل: والأَثَر بقية ما يُرى من كل شيء، وما لا يرى بعد أن تبقى فيه عُلْقه. والأَثَار الأَثَر، كالفَلاح والفَلَح، والسَّدَاد والسَّدد)

وقال الراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢ ه) أثرُ الشيء:حصول ما يدلُّ على وجوده، يقال: أَثَر وأَثَّرَ، والجمع:الآثار. قال الله تعالى:﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾، ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾،وقوله:﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.ومن هذا يقال للطريق المستدَل به على مَنْ تقدَّم: آثار، نحو قوله تعالى:﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾، وقوله: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ومنه:سمنت الإبل على أثارةٍ، أي: على أثرٍ من شحم، وأثَرتُ البعير: جعلت على خفه أثرةً، أي: علامة تؤثّر في الأرض ليُستدل بها على أثره، وتسمَّى الحديدة التي يعمل بها ذلك المِئثرة. وأثْر السيف: جوهره وأثر جودته، وهو الفرند، وسيف مأثور. وأَثَرْتُ العِلم: رويته، آثُرُه أَثْرًا وأثارةً وأثرةً، وأصله: تتبعتُ أثره. (أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ)، وقُرئ: (أَثَرة) وهو ما يروى أو يكتب فيبقى له أثر. والمآثر: ما يروى من مكارم الإنسان، ويستعار الأثرُ للفضل) (الأصفهاني، ص ٦٢)

وقال ابن منظور (ت ٧١١ه):أثر: بقية الشيء، والجمع آثار وأُثور. وخرجت

في إثْره وفي أثَره أي بعده... والتأثير: إبقاءُ الأثر في الشيء. وأثَّر في الشيء: ترك فيه أثرًا)) (ابن منظور، ج ١، ص ٤٢)

وذكر الفراهيدي في مصنّفه: الأَثَرُ: بقية ما يُرى من كل شيء، ومالا يرى بعد أن يُبْقَى عُلْقَةً (الفراهيدي، ج ١، ص ٦٥

ثانيا: الأثر في الاصطلاح

من استقرى معنى الأثر اصطلاحا، يجد له عدة من اطلاقات بحسب ما يراه أهل كل فن:

فهو عند الأصوليين: ((قول الصحابي وفعله وهو حجة في الشرع)) (الكفوي، ص٤٠)

عند العامة: وهو عند المحدثين يطلق على: ((الحديث الموقوف والمقطوع كما يقولون جاء في الآثار كذا، ويطلقه على الحديث المرفوع أيضا كما يقال جاء في الأدعية المأثورة كذا)). (التهانوي، ج١ / ص ٩٨)

وهو عند الفقهاء يستعمل للدلالة على كلام السلف، وجميع ما يرد عنهم من الأخبار.(التهانوي، ج١ / ص ٩٨)

أما صاحب (التعريفات): فقال إن للأثر ثلاثة معانٍ:

الأول: بمعنى النتيجة، وهو الحاصل من الشيء، والثاني: بمعنى العلامة، والثالث: بمعنى الجُزْء) (الجرجاني، ص ١١)

وقال المناوي الأثر: حصول ما يدل على وجود الشيء والنتيجة) (المناوي، ص ٣٨)

من هذا نستنتج أن الأثر في الاصطلاح له عدة من استعمالات بحسب العلم الذي هو داخلٌ فيه، فله في علم الحديث استعمال، وله في علم التفسير استعمال، وكذلك له في علم الأصول استعمالٌ خاصٌ ايضًا.

المبحث الأول
الخطاب الحسيني وروافده

المحور الأول / مفهوم الخطاب

يُعد مفهوم (الخطاب) من المفاهيم التي كثرت الكتابات فيها حديثًا، وتشعبت وجهات النظر إليها، واختلفت الآراء في دلالتها عند الناس اليوم، إذا تتبعنا هذا المفهوم عند علماء اللغة العربية تبين لنا نضج رؤيتهم لهُ.

أولًا: الخطاب في اللغة

يقول الجوهري (ت:٣٩٣هـ) في معجمه « خطب: الخَطبُ: سبب الأمر، نقـول: ما خطبـك. وخطبت على المنبر خطبةً بالضم. وخاطبه بالكـلام مخاطبة وخطابًا. وخطبت المرأة خِطبةً بالكسر، واختطب أيضا فيهما. والخطيب: الخاطب، والخطيبي: الخطبة » (الصحاح، الجوهري، ص:٣٢٧)

ويقول الفيروز آبادي (ت:٨١٧ه): « الخطب الشأن، والأمر صَغُر أو عَظُم، والجمع خطوب. وخطب المرأة خطبًا وخطبة وخطيبي، بكسرهما، واختطبها، وهي خطبه وخطبته وخطيباه وخطيبته، هو خطبها، بكسرهن، ويضم الثاني، والجمع أخطاب، فصل الخطاب: الحكم بالبينة، أو اليمين، أو الفقه في القضاء، أو النطق بـ(أما بعد). (آبادي، ص: ٤٧٨)

وورد لفظ الخطاب في المصباح المنير بما معناه:(خاطبه) مخاطبة وخطابا وهو الكلام بين متكلم وسامع ومنه اشتقاق الخطبة بضم الخاء وكسرها باختلاف معنيين، فيقال في الموعظة: خطب القوم وعليهم من باب قتل خطبة بالضم وهي فعلة بمعنى

مجلة علمية محكمة نصف سنوية
c-karbala.com
المجلد الاول ، السنة الاولى ، الملحق (١)

مفعولة نحو نسخة بمعنى منسوخة وغرفة من ماء بمعنى مغروفة وجمعها خُطَب مثل: غرفة وغرف فهو خطيب والجمع الخطباء وهو خطيب القوم إذا كان هو المتكلم عنهم.» (الفيومي، مراد، ص ١٠٦،ط ٠١، ٢٠٠٨)

يكاد الباحث في المعجمات اللغوية يجد إجماعا على أن الخطاب «مراجعة الكلام» (للفراهيدي، ٤ / ٢٢٢؛ الأزهري، ٧ / ٢٤٧ ؛ الرازي، ٢ / ١٩٨، أبو الحسن ،٥/ ١٢٢؛ ابن منظور١/ ٣٦١)؛ إذ يُعدّ خطابًا «كل كلام بينك وبين آخر» (الرازي،١/ ٢٩٥).

ثانيا: الخطاب في الاصطلاح

المصطلح في عرف البحث العلمي هو ما تم الإجماع على حدّيته، حتى يكون مفهومه جامعًا مانعًا، وفي الحقيقة لا يحصل هذا المفهوم إلا بتظافر عدد من التعريفات من مناحٍ عديدة، إذ إن التعريفات تشكل أرضية المفهوم، وما دام الأمر يتعلق بمفهوم الخطاب، فإنهُ لم يقتصر الأمر على شيوع وورود(الخطاب) في كتابات العرب القدماء المتنوعة، وتعاملهم معه بطريقة تثبت اتفاقهم على وضوح مفهومه لديهم بل نجد أن الوضوح الدلالي لمفهوم الخطاب قد تجلى في الكتب التي عُنيت بالمصطلحات عندهم، إذ يبدو أنه استحال مصطلحا مستقرًا منذ القدم، ولا نلقى في هذه الكتب مشقة في معرفة المعنى الاصطلاحي له عندهم، إذ يجدهم يصرحون بأن الخطاب (توجه الكلام نحو الغير للإفهام) (نكري ٢ / ٦١، النسفي، ١٠٧، المناوي، ١٥٦)، أو (القول الذي يفهم المخاطب به شيئًا) (الجرجاني، ١٦٩) .

إن هذا التعريف يحتوي على أمرين مهمين:

أولهما: الترابط الوثيق بين المعنى الاصطلاحي (للخطاب) لديهم، ومعناه اللغوي، الذي ذكرته المعجمات اللغوية، ويبدو أنه ترابط قوي سوغ له استعماله في كتاباتهم المختلفة التوجيهات من دون الإشارة للقارئ إلى مرادهم به، فهو في نظرهم على ما يبدو ليست به حاجة إلى بيان.

وآخرهما: التحديد الدقيق لطبيعة الخطاب أو ماهيته وبيان غرضه في تحقيق الفهم لدى المخاطب، إذ يتحقق الفهم بتصور المعنى من لفظ المخاطب (عيد، ص:١٧)

إن الخطاب مفهوم أوسع وأشمل من الجملة، وإنما يتحدد معناه المفهومي بناء على التلفظ أو العلاقة بين طرفين: مخاطِب ومخاطَب، « فالخطاب في هذا الفهم ذو طابع كلي وشمولي، لا يتوقف على البعد اللساني وحده، ولا على البعد الاجتماعي والتاريخي الذي يعد النص انعكاسا لحركة الدلالة في التاريخ، ولا يقتصر على البعد التداولي المعني بالتواصل في موقف محدد، ويمازج بين هذه الأبعاد نظرا وتطبيقا (الكفوي، ص: ٤١٩)

غير أن أبي البقاء الكفوي في كلياته يعطي مفهوما يأخذ في حسبانه ما يزيد عن اللغة المنطوق بها أو المكتوبة إلى الإشارات، يقول: « الخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه. احترز « باللفظ « عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة و» بالتواضع عليه « عن الألفاظ المهملة، و» بالمقصود به الإفهام « عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابا، وبقوله: « لمن هو متهيئ لفهمه « عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع وعلى (سعدون هنون / ١٨) مدلولها القائم بالنفس، فالخطاب إما الكلام اللفظي، أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام .

لقد إِقْتَدَى الإمام الحسين ﷺ بالقرآن الكريم وأتقن أسلوبه وطرق تعبيره، وحفظ نصه، وأحاط بكل صغيرة وكبيرة فيه من وجوه الإعجاز والتصرف بالألفاظ، وكان معلمه الأول في هذا الميدان جدهُ رسول الله ﷺ وسلم وأباه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، وفضلًا عن ذلك فقد أحاط علمًا بكلام جده وأحاديثه، وتمثل ما ورد فيها من أحكام وأوامر ونواهٍ، لأنها تمثل المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن، وكذلك تمثل كلام أبيه في خطابه ورسائله إلى ولاته وقادته وعماله وأعدائه، وأتقن ما ورد فيها من طرق التعبير وفنونه، وكان على قدر كبير من العلم بكلام العرب وأيامها وأنسابها وطرق تعبيرها في نثرها وشعرها.

إنَّ هذا الإرث الثقافي العظيم هو الذي مثل بنية الخطاب الحسيني، وقد استمد الإمام الحسين ﷺ منه كثيرًا من الأفكار والدلالات للتعبير عن أهداف ثورته ضد الظلم وإقامة الحجة على القوم الذين يوجه إليهم خطابه في مختلف مراحل هذا الخطاب، وقد بدا أثر القرآن الكريم وحديث الرسول واضحًا في بنية هذا الخطاب بدءًا من مغادرة مدينة جده رسول الله إلى مكة المكرمة، ثم إلى كربلاء حيث جرت معركة الطف وانتهت باستشهاد الإمام ومن معه.

من أهم روافد الخطاب الحسيني:

أولا: القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على رسوله ﷺ، وتحدى به العرب فأعجزهم رغم كونهم أرباب البلاغة، وفرسان الفصاحة، وقد بهرهم ما سمعوا من أسلوب القرآن وطرق نظمه، فأصبح معجزة الرسول ﷺ، وقد ترك أثرًا كبيرًا في حياة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية وغيرها.

وقد دأب الخطباء والأدباء والشعراء في تضمين نصوصهم من آياته وألفاظه وتراكيبه بنصها أو بمعناها؛ لما يتركه ذلك من أثر كبير في نفوس السامعين، وقد زيّن هؤلاء كلامهم بآياته وأمثاله وصوره، وأفادوا منه في تصوير المشاهد وتقريبها إلى الأذهان وإعطائها صيغة التجدد والحيوية (الياسري، ص٢٩).

والإمام الحسين عليه السلام مثل غيره من الخطباء، الذين يدافعون عن قضية أمة ومصير عقيدة، ويقفون في وجه الظلم والاستبداد، يريد أن يكون لخطابه أثر في نفوس المخاطبين لذا نجدهُ يلجأ كثيرًا إلى النص القرآني فيوظفه في أكثر من صورة، فهو أحيانًا ينثر الألفاظ القرآنية والتراكيب في عباراته التي يصوغ بها خطابه، فتدخل هذه الالفاظ والتراكيب بنية الخطاب؛ لتزيده قوة وثباتًا وتأثيرًا في نفوس السامعين، ويستطيع القارئ أن يتلمس بيسر أثر الألفاظ القرآنية في بنية الخطاب الحسيني(المقرم / ١٧٤) ويمكن أن نمثل لما ذكرناه بما ورد في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية والمسلمين حين أراد مغادرة مدينة جده إلى مكة المكرمة، بعد حديثه مع واليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وما جرى في ذلك المجلس من كلام، يقول الإمام: (وإنّ الجنة حق والنار حق والساعة

آتية لا ريب فيها وإنّ الله يبعث من في القبور) (المقرم / ١٧٣).

يتضح من هذا المقطع غلبة الألفاظ القرآنية على بنية الخطاب، بل يمكن القول: إن الخطاب في أساسه بني على فكرة قرآنية هي الثواب والعقاب وقيام الساعة وبعث من في القبور، وقد عبر الإمام عن هذه الفكرة بألفاظ (الجنة، والنار، والساعة، ويبعث، والقبور)، التي هي مبدأ من مبادئ الدين الإسلامي، وكذلك عندما عزم الإمام الحسين عليه السلام على الخروج من مكة إلى العراق وجه خطابًا إلى المسلمين بناء على الفكرة القرآنية في حتمية الموت وزوال الدنيا وقد ضمن خطابه طائفة من أسماء الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم (آدم، ويوسف، ويعقوب) يقول:

«خطّ الموت على وُلد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يُوسُف وخير لي مصرع أنا لاقيه» (الطبري، ٥ / ٤٢٥)

وقد سلكَ الإمام أسلوبًا آخر في توظيف النص القرآني؛ إذ نجدهُ يقتبس آيات بنصها، ويدخلها في سياق خطبه ورسائله، ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من تأثير في نفوس السامعين، ذلك أن آيات القرآن الكريم التي يختارها الإمام ويدخلها في سياق الخطاب يكون لها تأثير كبير في السامعين قال عليه السلام:

«وإنْ لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم».

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾(يونس:٧١)،﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(الأعراف:١٩٦) (هنون / ٣٣)

في هذا النص استحضر الإمام الحسين عليه السلام من خلال الآيات التي أدخلها في سياق كلامه حالة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه الظالمين، ليشير إلى النهاية التي تنتظر هؤلاء القوم إذا استمروا في ما هم عليه من الضلال، وهي شبيهة بنهاية قوم نوح

الذين أهلكهم الله بظلمهم، فالإمام الحسين ﷺ أراد إيصال رسالة إلى أسماع هؤلاء القوم ليبين من خلالها أن الله سوف ينصره ويخلده مثلما نصر نوحًا، وأهلك قومه الكافرون.

وفي آخر خطاب له في كربلاء حينما عرف عزم القوم على قتله وإصرارهم على تنفيذ أوامر أسيادهم الظالمين، وضع إمامهم النهاية التي تنتظرهم بعد قتله، ليكونوا على بينة من أمرهم، ويعرفوا النهاية السوداء التي تنتظرهم، وبين لهم استعداده ومن معه للقتال، ودعاهم إلى مواجهته محتجًا عليهم بآيات من القرآن الكريم قال (ﷺ):

(أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى، وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إليّ أبي عن جدي)

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾(يونس/ ٧١)، ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ (هود/ ٥٥) (المفيد / ٢٢، الكوفي،٥/ ١٤٣)

إن ما تقدم يمثل شواهد من توظيف الإمام الحسين ﷺ للنص القرآني في خطابه، وإفادته منه في أساليب نظمه، وطرق تعبيره، في بناء خطابه الذي خاطب به القوم المحتشدين لقتاله، لكي يلقي عليهم حجته، ويبين لهم سبيل الهدى والرشاد، ويبصرهم بما غفلوا عنه، ويوضح لهم النهاية التي تنتظرهم بعد قتله، لكنهم صموا آذانهم إمام نداء الحق ولم يسمعوا النصيحة، لقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، وذكر الآخرة.

ثانيا: الحديث النبوي الشريف

الحديث النبوي الشريف هو كلام الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إنما هو وحي يوحى، ويعد الحديث مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي، ويأتي بالدرجة الثانية من حيث الفصاحة بعد القرآن الكريم، فالرسول الكريم أفصح من نطق بالضاد، وقد ترك لنا ثروة هائلة من الأحاديث في مختلف ميادين الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية نقلها إلينا عدد من الصحابة والتابعين، وقد أصبح الحديث النبوي، مصدرًا من مصادر الدراسات والتشريع، وقد أفاد منه الخطباء والشعراء والأدباء في خطبهم وأشعارهم، وقد نص القرآن الكريم في كثير من آياته على إطاعة الرسول ﷺ، وقرن طاعته بطاعة الله سبحانه وتعالى، ومن هنا كان الحديث النبوي وسيلة من وسائل الاحتجاج عند من يريد بيان رأي، ودفاعًا عن فكرة أو عقيدة، وقد أفادت منه كثير من الفرق الكلامية في الساحة الإسلامية في الدفاع عن معتقداتها وأفكارها.

والإمام الحسين عليه السلام في ثورته ضد الظلم والطغيان، جعل من الرسول ﷺ وحديثه مرتكزًا من أهم مرتكزات هذه الثورة، واتخذ منه وسيلة من وسائل الاحتجاج على القوم وإيضاح الحق من الباطل، ويمكن أن نلحظ ذلك من جانبين:

الأول: اقتباس أحاديث الرسول بنصها أو بمعناها وإدخالها في بنية خطابه، لأن السنة تمثل جانبًا من جوانب التشريع الإسلامي، وما ورد منها في كلام الرسول يعد التزامه واجبًا شرعيًا على المسلم، وقد أشار أحد الباحثين إلى هذه المسألة بقوله:

(لا يرد إلا في المواقف التي يتطلب فيها إظهار الحجة والبرهان، والقصدية في ظلم حق أهل البيت وإنكاره واضحة عند الأمويين) (هنون / ٣٣)

ويبدو من هذا أن الإمام الحسين عليه السلام يستعمل الحديث النبوي في مواقف محددة يريد من خلالها إثبات حق أهل البيت في تولي أمور المسلمين، وبيان الظلم الذي تعرضوا له.

يقول الإمام الحسين عليه السلام في خطبة له إمام القوم في كربلاء: (أيها الناس إن رسول الله قال: (من رأى منكم سلطانًا جائرًا، مستحلًا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقًا على الله أن يدخله مدخله) (الترمذي، ٤ / ٤٩٦؛ ابن الاثير، ٣ / ٢٨٧)

ويبدو واضحًا من نص هذا الحديث أن الإمام الحسين أراد من الاحتجاج به، إثبات حقيقة لا تقبل الشك هي مسؤوليته تجاه الأمة في ظل حكم جائر، لأن قول الرسول يسوغ الثورة على الحاكم الظالم الذي تعدى حدود الله، وحكم بغير ما أنزل الله، فالإمام الحسين وارث النبي، وهو صاحب الحق في تولي قيادة الأمة، وهو أول المعنيين بهذا الحديث (الياسري، ص٣٥.

ومن صور احتجاجه بالحديث النبوي ما ورد في خطابه بين المعسكرين، وحديثه مع جيش عمر بن سعد، قبل أن يبدأ القتال، قال: (أولمْ يبلغكم قول مستفيض فيكم، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟ فإنْ صدّقتموني بما أقول وهو الحقّ، فوالله، ما تعمّدت كذبًا مذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله،...)(ابن الأثير،٢/ ٥٦١)

إن الإمام الحسين عليه السلام أراد من الاحتجاج بهذا الحديث تذكير القوم بالمكانة الكبيرة له ولأخيه الحسن عند الله ورسوله، فهما سيدا شباب أهل الجنة، وهما إمامان إن قاما وإن قعدا، وطاعتهم مفترضة، ولا شك أن هؤلاء القوم يعرفون ذلك حقًا وصدقًا وبينهم من سمع ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله.

لقد أراد الإمام من هذا إلقاء الحجة على هؤلاء القوم، وأراد أن يبين لهم أن ما يريدون الإقدام عليه عمل يغضب الله ورسوله، وهو يريدهم أن يقرروا بأنفسهم حقيقة هذا الكلام وصدقه، لذا أحالهم على جماعة من الصحابة سمعوا هذا الحديث من الرسول صلى الله عليه وآله، ولا يتبادر إلى الذهن أن الإمام الحسين يريد من هذا استعطافهم ليتركوه، فهو يعرف المصير الذي ينتظره حين قدم إلى العراق (الياسري، ص٣٦).

وتضمن خطاب الإمام الحسين عليه السلام، صورًا من الإرث الأدبي، التي وردت في خطب الإمام علي عليه السلام إلى ولاتهِ وأعدائه: ويمكن القول: إن أقوال أمير المؤمنين والإمام الحسن والسيدة فاطمة الزهراء عليهم السلام كلها مثلت مصدرًا من مصادر الخطاب الحسيني، وكل هؤلاء قد نهلوا من مدرسة الرسول صلى الله عليه وآله وتعلموا على يديه.

الثاني:الافادة من شخص الرسول صلى الله عليه وآله، فالإمام الحسين عليه السلام أفاد من شخصية الرسول صلى الله عليه وآله في إلقاء الحجة على القوم الذين احتشدوا لقتاله واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم كل شيء حتى تنكروا لصلتهِ برسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد عمد الإمام إلى تذكيرهم بأنه ابن الرسول، وأنه الإمام المفترض الطاعة وهو صاحب الحق في ولاية أمور الأمة، وكان حين يخرج لمخاطبة القوم ووعظهم يلبس عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله ويتقلد سيفه ويركب جواده ليرسم أمامهم صورة الرسول الأعظم ويذكرهم بأنه الوارث الشرعي لجده رسول الله وهو المؤهل لقيادة الأمة.

وهو يؤكد في كثير من مواضع خطابه صلته برسول الله ﷺ وقرابته منه ليعرف من لم يعرف، ويسمع من لم يسمع، بأن هذا الذي يخاطبهم هو إمام عصره، وهو ابن بنت رسول الله، وابن وصيه يقول: «أمّا بعدُ: فانسبوني فانظروا مَن أنا، ثمّ ارجِعوا إلى أنفسِكم وعاتِبوها، فانظروا: هل يَصلُح لكم قتلي وانتهاكُ حرمتي؟ ألست ابنَ بنتِ نبيِّكم، وابنَ وصيِّه وابن عمِّه وأوّل المؤمنينَ المصدِّقِ لرسولِ اللهّ بما جاءَ به من عندِ ربِّه، أَوَليسَ حمزةَ سيدُ الشُهداءِ عم أبي، أَوَليسَ جعفر الطّيّارُ في الجنّةِ بجناحَيْنِ عَمِّي» (الحراني،٢٤١)

إن الإمام حين طلب منهم أن ينسبوه، لا يعني أنه غريب عنهم ولا يعرفونه، فهم يعرفون أنه الإمام المفترض الطاعة، كل ذلك معروف عندهم، إنما أراد الإمام من هذا تذكير هؤلاء القوم الذين أعماهم طمع الدنيا فأنساهم كل شيء، وأراد إلقاء الحجة عليهم لكي يكونوا على بصيرة من أمرهم ويميزوا بين الحق والباطل، ويعرف من لا يعرف منهم، حقيقة الأمر، وسبب خروج الإمام، وإعلان ثورته (هنون / ٤٤).

وفي ضوء هذا يمكن القول: إن شخصية الرسول الأعظم وصلة الإمام الحسين به كانت حاضرة في بنية الخطاب الحسيني شكلًا ومضمونًا. ومثلما أفاد الإمام الحسين عليه السلام من كلام جده وأبيه في حواره مع القوم فقد أفاد من شخصية الرسول في هذا الحوار.

ثالثًا: كلام العرب

يعد كلام العرب من شعر ونثر مصدرًا مهمًا من مصادر النصوص الأدبية على اختلاف أنواعها سواء أكانت رسائل أم خطبًا أم غيرها. وحين نطالع في نهج البلاغة مثلًا نجد الإمام عليًا عليه السلام يضمّن خطبه ورسائله كثيرًا من شعر العرب وأمثالهم والإفادة من هذا المورد تقتضي من المنشئ الإلمام بكلام العرب وأشعارها وأمثالها، ليستطيع أن يختار منها ما يلائم المقام والحدث، الذي يريد أن يتحدث فيه.

والإمام الحسين وارث ثقافة أدبية عظيمة تلقاها من جده وأبيه، وهو على قدر كبير من الإلمام بما تحدثت به العرب من شعر ونثر، لذا نجده يضمّن طائفة من خطبه ورسائله في معركة الطف نصوصًا من الشعر أو الأمثال، بحسب ما يقتضيه مقام الحديث، أو يتطلبه سياق الكلام، ويبدو ذلك واضحًا في خطابه مع الجيوش التي يقودها عمر بن سعد في كربلاء، يقول الإمام: (ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية، ونفوس أبية، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.

ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر). ثم أوصل كلامه بأبيات فروة بن مسيك المرادي (الخوارزمي، ٢/ ٦).

فإن نهـزم فهزامـون قدما ... وإن نُهـزم فغـير مهزمينـا

ومـا إن طبنا جبـن ولكن ... منايانـا ودولـة آخرينـا

إذا ما الموت جـرّ على أناس ... بكلكلـهِ أنـاخ بآخرينـا

فلــو خلد الملــوك إذن خل ولو بقي الكــرام إذن بقينا

فقل للشــامتين بنــا أفيقوا سيلقي الشــامتون كما لقينا

لقد استطاع الإمام الحسين عليه السلام أن يوظف هذه الأبيات التي قالها الشاعر في مقام معين في رسم الصورة الرائعة للموت الكريم والنتائج التي تنتهي بها المعارك، يقول أحد الباحثين:

«لقد أكد أن انتصار الحرب وخسرانها يتقاسمان المعركة، ولكن قد يأتي الانتصار مصحوبًا بالحياة الذليلة، وقد يرد خسران المعركة وشعارها الحياة الخالدة، أما الموت فحقيقة شاملة خارج الإرادة الإنسانية، ولكن الموت الكريم لا يخرج عن تلك الإرادة، وهذا ما اكدته الأبيات وصورته « (الياسري، ص٤٠)

ويبدو قول الشاعر:

فقل للشــامتين بنــا أفيقوا سيلقى الشــامتون كما لقينا

منسجمًا تمامًا مع قول الإمام في الخطاب نفسه:

« أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى....» ابن الأثير، ٣/ ٢٨٥)

فقد أوضح الإمام من خلال تمثله بهذه الأبيات لهؤلاء القوم، أنهم حين يفرحون بقتله الذي ينال به رضا الله، ويكسب العزة والكرامة والخلود الأبدي، فإنهم سوف يلقون المصير نفسه، وفي وقت قريب، لكن نهاية موتهم تختلف عن نهاية موته؛ إذ إنه حين يموت يحظى برضا الله ورسوله، ويخلده التاريخ، في حين أنهم ينالون غضب

الله والرسول، وسوف يلعنهم الله والملائكة والناس، وينساهم التاريخ، وليس هذا الأمر ببعيد، وشتان ما بين النهايتين (الميداني،٢/ ٢٧٣).

وفضلًا عن الشعر فقد أفاد الإمام الحسين عليه السلام من أمثال العرب، وقد وظفها الإمام في خطابه في أجمل صورة معبرة سواء أكان ذلك بنصها أم بمعناها، لما له من تأثير في نفوس السامعين، وقدرة على تصوير الموقف بعبارة موجزة.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في خطابه لأهل بيته وأنصاره حين أحاط به القوم وعزموا على قتاله قال:

«ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعًا في حل مني، ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملًا « (هنون، ٤٥)

والعبارة الأخيرة من كلام الإمام (اتخذوا الليل جملًا) مثل يضرب لمن يطلب حاجته في الليل حتى ينالها (الميداني، ٣ / ٣١٦)

لقد بين الإمام لأصحابه من خلال إيراد هذا المثل في سياق خطابه أن الليل ستر لمن أراد أن يذهب فيه وهو مثل الجمل في قدرته على حملهم إلى بر الأمان رغم الصعاب وخطورة الطريق (الساعدي، ١٥٩).

وقد يستعمل الإمام الإشارة إلى دلالة المثل في سياق خطابه، ويعبر عنه بألفاظ غير ألفاظه، ولكنها تؤدي ما يحمله هذا المثل من دلالة، ففي قوله الذي تقدم ذكره (هيهات منا الذلة) ترجمة لقول العرب: (المنية ولا الدنية) وهو مثل يضرب لمن يختار الموت العزيز على العيش الذليل، وقد تكرر هذا المعنى في خطاب آخر للإمام عليه السلام حين قال:

(لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما) (الساعدي، ١٦١_١٦٢).

ويبدو واضحًا الانسجام التام بين هذا المثل الذي اختاره الإمام للتعبير عن موقف محدد، وبين الواقع الذي جسده الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره في واقعة الطف، فقد اختاروا جميعًا الموت العزيز على حياة الذل مع الظالمين، وهو تجسيد حي لمقولة الإمام.

المبحث الثاني

أثر الخطاب التربوي الحسيني في شباب الأربعين

الإمام الحسين عليه السلام سليل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي، جدهُ رسول الله صلى الله عليه وآله أفصح من نطق بالضاد، وقد أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم الذي يمثل أفصح نص عرفتهُ العربية في تاريخها على الإطلاق، وقد حفظها الله به وحفظهُ بها، فكان كتابها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأبوه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وارث علم الرسول وباب مدينة العلم وإمام البلغاء، وسيد الخطباء، بلا منازع، وصاحب نهج البلاغة أفصح نص عربي بعد كتاب الله وكلام رسوله، وفيه من بلاغة القول وفصاحة الألفاظ وتنوع الأساليب ما يعجز عنه البشر، وأمهُ فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين ورثت البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الخطاب من أبيها.

وقد حمل الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام هذا الإرث العظيم من بلاغة القول وفصاحة اللسان وقوة التعبير من جدهما وأبيهما.

ومن هذا الإرث الثقافي العظيم ينطلق الإمام الحسين عليه السلام في خطابه بجملة من الآثار التربوية التي لم تقتصر على شريحة محددة لا من حيث العمر ولا من حيث الجنس ولا من حيث المستوى الثقافي فالجميع متاح له أن يتربى على مبادئها صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً.

ومن هذه الآثار:

١- ترسيخ مكانة سيد الشهداء عليه السلام في النفوس

أُولى الآثار التربوية هي ترسيخ مكانة الإمام الحسين عليه السلام في النفوس، فقد تمكن السياق الاجتماعي في جغرافية أتباع أهل البيت عليهم السلام عبر قرون طويلة من صياغة إحياء مناسبات أبي عبد الله الحسين عليه السلام ولا سيما في زيارة الأربعين المباركة على شكل قيمة اجتماعية عُليا، يحظى المتصف بها بالتكريم والتقدير، ويوصم المتخلف عنها، أو الرافض والمناهض لها، بالعداء والانحراف الفكري والمرض القلبي. (الإربلي، ج ٢ ص ٢٩-٣٠)

وكذلك الدعوة إلى زيارة سيد الشهداء عليه السلام، التي كانت المنطلق لزيارة سائر الأئمة، والاقتراب من تراثهم الفكري، وعطائهم الإسلامي.

وفي الزيارة ترسيخ حب أهل البيت في نفوس محبيهم والعطاء المترتب عليها في الدنيا والآخرة، وأمكن لهذه الزيارة العظيمة أن تثير اهتمام ورغبة الجمهور لفهم حقيقة ودور الأئمة الآخرين والانشداد العقلي والعاطفي معهم بوصفها حركة جماهيرية شكلت ولا زالت حالة استثنائية في مسار التبني الجماهيري العام للرموز العقدية.

٢- الجرعة الولائية الوقائية

من الآثار التربوية للخطاب الحسيني هي الولاء لأهل البيت عليهم السلام والوقوف إلى جانبهم من خلال الاعتقاد بمفهوم الإمامة وضرورتها في الحياة الإسلامية على وفق الشروط والمواصفات التي أشار إليها الكتاب والسنة، والبراءة من أعدائهم وكل ثقافة تحاول تهميش دور الأئمة المعصومين عليهم السلام في حياة المسلمين.

ولم يكن ولاء أتباع أهل البيت عليهم السلام لأهل بيت الطهارة والعصمة، في يوم من الأيام، ولاءً عاطفيًا حسب بل كان للولاء الفكري والعقيدي والثقافي مكانته السامية.

وفي ضوء ذلك، إن زيارة سيد الشهداء عليه السلام ولا سيما لشبابنا في زيارة الأربعين المباركة تمثل جرعة تلقيح ولائية، وظيفتها تحصينهم من الانحراف الولائي والابتعاد عمّن أمرنا الله بالتمسك بولايتهم ومودتهم ونهجهم المشرق، وقد عشنا تجربة الزيارة بأنفسنا، فكانت من أبلغ عوامل التربية الولائية التي حمتنا من الانزلاقات والتخبطات والشبهات العقدية.

إلى جانب ذلك، فإن زوار سيد الشهداء عليه السلام يستحضرون وهم يمشون ساعات وأيامًا متطاولة مفهوم الإمامة ولو بنحو إجمالي.

والحشد الجماهيري يعمل على تعزيز هذه المكانة في نفوس أبنائنا من الأطفال والشباب وبنحو مكثف من الزخم العاطفي.

ويحملهم الزخم نفسه على التعمق في معرفتهم، والتزود من آثارهم، فيكبرون على التمسك بموالاة أهل البيت عليهم السلام والتبري من أعدائهم. (المجلسي، ج١ / ١١٧)

٣- التربية الإيجابية والعملية

التربية الإيجابية ونقصد بها المنهج القائم على الاهتمام بالسلوك السوي والتشجيع عليه دون تركيز على السلوك السلبي ومحاولة التصدي له، ومن خطبه له عليه السلام في مكارم الأخلاق: قال فيها: (أيّها الناس: نافسوا في المكارم، وسارعوا في المغانم، ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوا، واكسبوا الحمد بالنجح، ولا تكسبوا بالمَطل ذمًّا، فمهما يكن لأحد عند أحد صنيعة له رأى أنّه لا يقوم بشكرها، فالله له بمكافأته، فإنّه أجزل عطاء، وأعظم أجرًا. واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم، فلا تملّوا النعم فتحور نقمًا. واعلموا أنّ المعروف مُكسِب حمدًا، ومُعقِب أجرًا، فلو رأيتم المعروف رجلًا، رأيتموه حسنًا جميلًا يسرّ الناظرين. ولو رأيتم اللُّؤم رأيتموه سمجًا مشوّهًا، تنفر منه القلوب، وتغضّ دونه الأبصار) (المجلسي، ١٦١_١٦٢)

فأولى الأمور التي نص عليها الإمام عليه السلام هي التنافس في مكارم الأخلاق ونبذ المساوئ والتصدي لها ومحاولة معالجتها وكذلك التشجيع على السلوك الإيجابي الذي يتكفل بمعالجة السلوك السلبي بنحو تلقائي، فبدلًا من أن نتحدث عن مساوئ الكذب وعواقبه، نعزز الصدق ونكافئ المتصفين به. وبدلًا من أن نشجع البخل، نمدح الكرم ونقدر الممارسين له...، وقد ألمح رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله إلى جانب مهم مما نحن فيه عبر جوابه عن العقل ما هو وكيف هو وما يتشعب منه بقوله: (ومن المداومة على الخير كراهية الشر) (المائدة: ٦٣).

لقد تصدى الإمام الحسين عليه السلام أيضًا إلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بصورة جلية، إذ تجسّدت على أرض الواقع بالقول والفعل، فيقول: «اعتبروا أيّها الناس بما وعظ الله به أولياءه من سوء ثنائه على الأحبار، إذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ

الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ...﴾٥ وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾٧، وإنّما عاب الله ذلك عليهم؛ لأنّهم كانوا يرون من الظلمة، الذين بين أظهرهم، المنكر والفساد، فلا ينهونهم عن ذلك رغبةً فيما كانوا ينالون منهم، ورهبةً ممّا يحذرون، والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾، وَقال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾، فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فريضةً منه، لعلمه بأنّها إذا أُدّيت وأُقيمت، استقامت الفرائض كلّها، هيّنها وصعبها. وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، دعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم ومُخالفة الظالم، وقسمة الفيء والغنائم وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقّها...» (المائدة: ٧٨)

لقد رسم الإمام ﷺ للمكارم صورًا محسوسة، تتمثّل إمام الناظر بأحسن صورها وأبهاها؛ لتكون ممّا تشخص إليها الأبصار، وتهفو إليها الأنفس، فقد شبّه صورة المعروف بصورة رجل وضيء حسن الوجه يسرّ الناظرين، ويقابل ذلك بصورة اللؤم، فيشبّهه بصورة رجل سمج مشوّه تنفر منه القلوب.

فالشخص الذي يتدرب على الأعمال الإيجابية سوف يصل إلى مرحلة نبذ الأعمال السلبية، وممارسة زيارة الأربعين المباركة تمثل مسرحًا يحتشد بالسلوكيات الإيجابية والتشجيع عليها كالأخلاق والأعمال، والمبادئ الحسنة بطريقة عملية حية ملموسة قابلة للمحاكاة والتقليد، حيث يتيح موسم زيارة الأربعين المباركة، عرض حزمة من السلوك السوي بنحو مستمر من قبيل السخاء، والإيثار، والتعاون، والوفاء، والاحترام وتكاد تنعدم فيها السلوكيات السلبية.

٤-الظهور صفًا واحدًا إمام الأعداء

إذا كان الله عزوجل قد دعانا أن نقف صفًا واحدًا إمام أعداء الإسلام بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾، فكذلك الإمام الحسين دعانا أن نقف بوجه الظلم والظالمين وأن لا نقف مكتوفي الأيدي وقد حث على ذلك في خطبه ورسائله، فإن أبرز مظاهر ومصاديق هذا الصف المرصوص ما نراه من وقوف المؤمنين بعضهم إلى جانب بعض رجالهم ونسائهم وهم يسيرون إلى الحسين ﷺ، ولا شك أن مثل هذا التعبير يريد أن يشير إلى أن الجدار كما يصعب دفعه وكسره، لأنه مكون من لبنات مفردة، ولكنها متماسكة بقوة الاتحاد فيما بينها فاكتسبت قوة جديدة إلى قوتها (المائدة: ٧٩).

وها هم اليوم شبابنا السائرون إلى الإمام الحسين ﷺ، فهم كتلة واحدة لا يمكن ثنيها وتفتيتها، لأنهم صاروا صفًا واحدًا في حب الحسين ﷺ، كأنهم بنيان مرصوص، وهذا هو سر بقاء هذه الشعيرة عبر التاريخ إلى الآن رغم ما تعرضت له من ضربات شديدة، لكن بتكاتف الشباب ستبقى، ولا يضر أحد بها.

٥_ إصلاح النفس

لعلّ الخطاب الموجّه للنفس وتذكيرها بأوامر الله سُبحانه وتعالى ونواهيه تحمل من المضامين الكثيرة، ولا سيما ما يصدر عن المعصوم ﷺ، فهي تترك أثرًا كبيرًا في المتلقي؛ إذ تعطيه الحافز على الاقتداء واستلهام العبرة؛ فخوف المعصوم من ارتكاب المعاصي التي تؤدي إلى النار، إنّما هو تذكير للعامّة بوجوب الحذر من ارتكاب هذه المعاصي، التي تدفع بصاحبها إلى النار، وممّا حمل هذا المعنى في مواعظ الإمام الحسين ﷺ، قوله عندما سُئل: «كيف أصبحت يا بن رسول الله؟ قال ﷺ: أصبحتُ

ولي ربٌّ فوقي، والنار إمامي، والموت يطلبني، والحساب محدق بي، وأنا مرتهن بعملي، لا أجد ما أحبّ، ولا أدفع ما أكره، والأُمور بيد غيري، فإن شاء عذّبني، وإن شاء عفا عنّي، فأيّ فقير أفقر منّي؟!» (المائدة: ٤٤)

نلمس في هذا النصّ الكثير من الآثار التربوية الموجّهة للنفس؛ ليعم تأثيرها في الآخر، إذ كانت إجابته تمثّل مسارًا واضحًا يوصل مَن سار عليه إلى مأمنه ونجاته، ويُحصّنه ممّا قد يقع به المرء؛ نتيجة غفلته أو ابتعاده عن جادّة الحقّ. ركّز الإمام عليه السلام على مسألة مهمّة في حياة العبد وهي مخافة الله سُبحانه وتعالى، الذي يراقب العبد (أصبحت ولي ربّ فوقي)، فعندما يطمئن المرء بوجود الرقيب المطّلع على الخفايا، لا يقدم على المعاصي، بل يحرص على التحلّي بالمحاسن والمحامد كالتقوى والورع، والسير على ما يرضي الرقيب إذا ما علم أنّ الأعمال لا تُترك على عواهنها، بل هناك جزاء (والنار إمامي، والموت يطلبني، والحساب محدق بي)، وهنا يتحدد الجزاء في ضوء العمل (وأنا مرتهن بعملي)، فالمرء رهين بعمله، لا يدفع عن نفسه (لا أجد ما أُحبّ، ولا أدفع ما أكره، والأُمور بيد غيري)، وهذا يوجب الانقطاع إلى الله والتسليم بقضائه، مع الأخذ بالأسباب في اتباع أوامره، والابتعاد عمّا يغضبه.

٦_الثبات على المبدأ

لم تثنِ الإمام الحسين عليه السلام الضغوط عمّا اختطّه لنفسه من طريق؛ إذ تروي كتب التاريخ كثرة المعارضين لنهضته، فهذا ابن عباس يتوسل محاولًا منعه من الشخوص إلى الكوفة بكلّ الوسائل، فلم يفلح؛ إذ يقول بعد أن استيأس من ثني الإمام عليه السلام عن المسير: «والله، لو أعلم أنّي إذا تشبثت بك، وقبضت على مجامع ثوبك، وأدخلت يدي في شعرك حتى يجتمع الناس عليَّ وعليك، كان ذلك نافعي لفعلته، ولكن أعلم أنّ

الله بالغ أمره...» (التوبة: ٧١)، فثبات الإمام عليه السلام نابع من عقيدته الراسخة، وإيمانه المطلق بصحة نهضته، التي هدفها الإصلاح، فضلًا عن تردي الواقع الذي تمرّ به الأُمّة، وانحراف المسيرة بعد أن تصدى لها ذوو الضلالة والانحراف.

لقد تجسّد ثبات الإمام الحسين عليه السلام في رفضه الخضوع للّئام كما وصفهم في خطبته المشهورة، إذ يقول: «أَلا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد تركني بين السلّة والذلّة، وهيهات له ذلك منّي، هيهات منّا الذلّة، أبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجُورٌ طهُرت وجُدود طابت، أن يُؤثر طاعة اللِّئام على مصارع الكرام، أَلا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة على قلّة العدد، وكثرة العدو، وخذلة الناصر» (الحرّاني، ص٢٣٧) ، لم يتأثر بالعدو وكثرته، ولا قلّة الناصر، وتنصّل مَن راسله عن عهودهم.

إنّ ثبات الإمام الحسين عليه السلام على المبادئ والقيم الحقّة، التي هي ميراث النبوّة على قلّة الناصر وشراسة العدو، وتمسّكه بالرسالة الإصلاحية التي أصرّ على إبلاغها للأجيال، من الدروس التي يجدر بنا التمسّك بها في زماننا هذا وفي كلّ أوان، فـ «ما أحوج المسلمين اليوم أن يستلهموا جهاد أُولئك العظماء الأفذاذ، ويقتفوا آثارهم، في التمسّك بالدين، والثبات على المبدأ، والتفاني في نصرة الحقّ، ليستردوا مجدهم الضائع، وعزّهم السليب، وينقذوا أنفسهم من هوان الهزائم الفاضحة والنكسات المتتالية» (سورة الصف:٤).

٧_اتّباع السنّة

لقد سار الإمام الحسين عليه السلام على هدي الرسالة المحمدية السمحة، التي أرست قواعد البناء والإصلاح، وغرست شجرة الخير؛ ليعم نفعها الجميع، فتعهد الإمام

الحسين عليه السلام رعاية هذه الشجرة لتؤتي أُكلها كلّ حين، فرفع شعار الإصلاح واتّباع سنّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في تحقيق هذه الرسالة «خرجت لطلب الإصلاح... وأسير بسيرة جدّي وأبي علي بن أبي طالبٍ» (الصمياني، ٩٨)

لقد تصدى الإمام الحسين عليه السلام إلى إحياء سنّة جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله من خلال التصدي للبدع التي تجذّرت في المجتمع، فابتعد القوم عن سبل الرشاد، فكان لزامًا على إمام الأُمّة أن يصدع بدعوته إلى السنّة النبوّية السمحة، وهنا يقول الإمام الحسين عليه السلام: «وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، فإنّ السنّة قد أُميتت، وإنّ البدعة قد أُحييت، وإن تسمعوا قولي وتُطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد» (الصدوق، ص٧٠٧؛ الصدوق: ج٤، ص٤٤٠)

جسّد الإمام عليه السلام اتباعه لسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله على أرض الواقع، من خلال رفضه للانحراف، والتصدي لتقويمه بالقول والفعل، من خلال رفضه البيعة، ونهضته للمطالبة بالتغيير ورفع الظلم والحيف الذي لحق بالأُمّة إذ يقول: «أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَن رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله. أَلا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله...» (الأصفهاني، ص٧٣. الجوزي، ص٢٣٩ ، الذهبي، ج٣، ص٢٩٣)

٨_حفظ الكرامة

ومن الآثار التربوية التي حفلت بها السيرة الحسينيّة الشريفة، التي تُعدّ دروسًا ومبادئ رصينة وراسخة، ونجد ذلك الأمر جليًا في خطاب الإمام الحسين عليه السلام الموجّه للإنسان حينما «جاءه رجل من الأنصار يُريد أن يسأله حاجة، فقال عليه السلام: يا أخا الأنصار، صُن وجهك عن ذلة المسألة، وارفع حاجتك في رقعة، فإنّي آتٍ فيها ما سارّك إنْ شاء الله. فكتب: يا أبا عبد الله، إنّ لفلان عليّ خمسمائة دينار، وقد ألحّ بي، فكلّمه ينظرني إلى ميسرة. فلمّا قرأ الحسين عليه السلام الرقعة دخل إلى منزله، فأخرج صرّة فيها ألف دينار، وقال عليه السلام له: أمّا خمسمائة، فاقض بها دينك، وأمّا خمسمائة فاستعن بها على دهرك، ولا ترفع حاجتك إلّا إلى أحد ثلاثة: إلى ذي دين، أو مروءة، أو حسب، فأمّا ذُو الدين فيصون دينه، وأمّا ذو المروءة فإنّه يستحيي لمروّته، وأمّا ذُو الحسب، فيعلم أنّك لم تُكرم وجهك أن تبذله له في حاجتك، فهو يصون وجهك أن يردّك بغير قضاء حاجتك» (الطبرسي، ج٢، ص٢٥)

لم يكتفِ الإمام الحسين عليه السلام بذلك، بل وضع قاعدة من خلال إرشاد مَن يضطر إلى طلب الحاجة من الناس، أن لا يسأل إلّا ذا دين (فيصون دينه)؛ فيكتم أمر السائل، ولا يذيع خبر مسألته بين الناس، وذا المروءة؛ (فإنّه يستحيي لمروءته)، فلا يهدر كرامة السائل فيحسن إليه. أمّا ذو الحسب، فإنّه يستجيب لَمن يسأله قضاء حاجة من دون منٍّ أو أذى.

مجلة علمية محكمة نصف سنوية
www.arbnj.com
صفر - ١٤٤٥هـ ,ايلول - ٢٠٢٣م

الخاتمة

توصلنا إلى جملة من الاستنتاجات منها:

١. الخطاب الحسيني خطاب عالمي بامتياز يلاطف الوجود الإنساني لأنه مَتَحَ من النبع القرآني الصافي وما يؤديه من تفعيل حركية النص والخطاب في هداية المجتمع الإسلامي خاصة، والبشرية عامة.

٢. كانت خطب الإمام الحسين عليه السلام ومواعظه امتدادًا لمنهج النبي صلى الله عليه وآله وأبيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، من خلال تضمين هذه الخطب والمواعظ من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وكلام الإمام علي عليه السلام، فكان كلامه تثبيتًا للسنّة النبويّة الشريفة واتباعًا لها.

٣. الخطاب الحسيني يسعى إلى إصلاح القيم المثالية لدى الانسان المسلم، إذ لا يحدد ما هو كائن وإنما ما يجب أن يكون، ومن هنا كتب لخطابه الديمومة والخلود والدليل نحن الآن في القرن الحادي والعشرين ونحتاج إلى وقفة لفهم خطابه.

٤. لقد رسم الإمام عليه السلام لمكارم الأخلاق صورًا محسوسة تتمثّل إمام الناظر بأحسن صورها وأبهاها؛ لتكون ممّا تشخص إليها الأبصار، وتهفو إليها الأنفس، فقد شبّه صورة المعروف بصورة رجل وضيء حسن الوجه يسرّ الناظرين، ويقابل ذلك بصورة اللؤم، فيشبّهه بصورة رجل سمج مشوّه تنفر منه القلوب.

٥. استقرى الإمام الحسين عليه السلام المستقبل من خلال الواقع الذي تعيشه الأُمّة، فوجد في نهضته أملًا مستقبليًا في تصحيح الانحراف والعودة إلى جادّة الحقّ، وعليه لم تكن نتائج النهضة آنيّة إنّما تؤسس لمرحلة مستقبلية.

قائمة المصادر

- القرآن الكريم.

١. الاحتجاج، أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مطابع النعمان النجف الأشرف حسن الشيخ إبراهيم الكتبي، تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخرسان، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.

٢. أخلاق أهل البيت عليهم السلام، السيد مهدي الصدر، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.

٣. الأربعين وفلسفة المشي إلى الحسين (عليه السلام)، الشيخ حيدر الصمياني، قسم الشؤون الفكرية والثقافية / العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م.

٤. الأمالي / محمَّد بن محمَّد بن النعمان بن عبد السَّلام الحارثي المذحجي العكبري، المعروف بابن المعلم، والشيخ المفيد / تحقيق علي أكبر غفاري / مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الخامسة / ١٤٢٥هـ.

٥. الأمالي، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق، المكتبة المركزية، طهران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار محمد باقر المجلسي / دار إحياء التراث العربي ـ بيروت لبنان / ١٩٨٣.

٧. تاريخ الأُمم والملوك / الطبري / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار المعارف ـ مصر / ١٩٧٤م.

٨. تحف العقول عن آل الرسول / الحسن بن علي الحراني / تحقيق علي أكبر الغفاري / رابطة أهل البيت الإسلامية ـ د ـ ت.

٩. تذكرة الخواص من الأمة بذكر خصائص الأئمة، ابن جوزي، يوسف بن قزاوغلي، تحقيق: حسين تقى زاده، الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، مركز

الطباعة، قم-إيران، ١٤٢٦ هـ.

١٠. التعريفات: العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.

١١. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري تحقيق: د. عبد السام سرحان، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

١٢. التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٩٠م.

١٣. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري، عرّب عباراته الفارسية: حسن هاني مخلص، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى٢٠٠٠م.

١٤. الخطاب الحسيني في معركة الطف دراسة لغوية وتحليلية، عبد الكاظم محسن الياسري، كربلاء، العتبة الحسينية المقدسة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

١٥. زيارة الأربعين المباركة دلالات وآفاق، محمد عبد الرضا هادي الساعدي، الناشر باقيات، مطبعة الوردي، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م.

١٦. سنن الترمذي / أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي / تحقيق محمود محمد محمود / منشورات محمد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية بيروت / ٢٠٠٠م.

١٧. سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

١٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجواهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للماليين، بيروت، الطبعة الرابعة١٩٨٧م

١٩. طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية: عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو حفص، نجم الدين النسفي، الناشر: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى ببغداد، ١٣١١هـ

٢٠. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهال، د. ت.

٢١. الفتوح المكية / أبو محمد بن أكثم الكوفي / دار الندوة الجديدة / بيروت ــ لبنان/ ٢٠٠٢م.

٢٢. القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق: التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ –٢٠٠٥ م.

٢٣. الكامل في التاريخ / أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير / تحقيق عبد الوهاب النجار ـ مصر ١٣٥٦هـ.

٢٤. كشف الغمة في معرفة الأئمة، العلامة المحقق أبي الحسن على بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، دار الأضواء بيروت – لبنان، ١٣٨١هـ.

٢٥. الكليات؛ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفوي، وأعده للطبع ووضع فهارسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، د. ت.

٢٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة أ١٤١٤هـ.

٢٧. مجمع الأمثال / أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار الجيل ــ بيروت / ١٩٨٧.

٢٨.مجمل اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية،١٩٨٦م.

٢٩.المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب لعلمية، بيروت، الطبعة الأول٢٠٠٠م.

٣٠.المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي-، تحقيق: يحيى مراد، مؤسسة المختار، الطبعة الأولى، مصر، ٢٠٠٨

٣١.المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت الطبعة الأولى – ١٤١٢هـ

٣٢.مقاتل الطالبيين: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصبهاني، المحقق: السيد أحمد صقر الناشر: دار المعرفة، بيروت _ لبنان.

٣٣.مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، تحقيق: عبد السالم محمد هارون، دار الفكر ١٩٧٩م.

٣٤.مقتل الإمام الحسين / موفق بن أحمد المكي الخوارزمي / تحقيق محمد السماوي / منشورات مطبعة

٣٥.مقتل الحسين / عبد الرزاق الموسوي المقرم / مؤسسة الخرسان / بيروت ـ لبنان ١٤٢٦.

٣٦.من لا يحضره الفقيه، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، ا لناشر: مؤسسة الأعلمي-بيروت _ لبنان، ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

٣٧.موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي بن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم

تحقيق، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت الطبعة الأولى – ١٩٩٦م.

٣٨.النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ، محمد عبد الباسط عيد، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩ م.

الرسائل الجامعية:

- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية / رسالة ماجستير هادي سعدون هنون / كلية الآداب / جامعة الكوفة / ٢٠٠٨ م.